الإنسان حاضراً ومستقبلاً(*)

محمد عزيز الحبابي

توضيح :

أن تُعَنْوَنَ محاضرة بهذه الصيغة يستوجب وقفة قصيرة إيضاحية.

إن الحديث عن «الإنسانية حاضرا» ليس مستحيلا، فالحاضر نعيشه وإنسانيته نشاهدها في أفعالها وتفاعلاتها. المشكل هو الحديث عن «إنسانية المستقبل». إنها محاضرة فكرية، إذ المستقبل لما يتم، بل لَمَّا يكن، ومصير إنسانيته عند علام الغيوب. فاحتراما للدقة والموضوعية، يجب أن يصير العنوان هكذا : «الإنسانية مستقبلا، إذا بقيت في المستقبل إنسانية».

«إذا» الشرطية ضرورية هنا مادامت المؤشرات الحالية ترغم على الحذر. ألا تنذر بدمار العالم، على اختلاف كائناته ؟ العالم الحاضر محاصر بأسلحة فتاكة إذا ما أطلق لها العنان لن تبقى ولن تذر. يكفي أن تنفلت الرزانة من قبضة مسؤول من رجالات الدول النووية أو أن يقع في لحظة غضب أو نوبة أعصاب لتحل، في رمشة عين، الكارثة العظمى، تجر معها كوارث لا تحصى. فمثل الإنسانية الحالية كمثل الراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

* * *

بالعنوان «الإنسانية حاضرا». إن الحاضر العالمي، وإن لم يكن للجميع، معروف لدى الجميع. إنه معروف بعنفه، على كل المحتويات، وبحروبه الباردة والفاترة

(*) ألقيت هذه المحاضرة سنة 1983.

والحارة، وبالحروب الصغيرة والعالمية. عالمنا الحالي معروف أيضا بأمراضه لكن من بين 15 مليون من المصابين بالجدام والبرص (الثلث من إفريقيا) ؟ ومعروف بمجاعاته : 30 مليونا من البشر يموتون جوعا، سنويا (وكلهم من العالم الثالث). وبالإضافة إلى ذلك، إن 75% من الثالثيين يجهلون العالم لأنهم أميون.

القائمة طويلة جدا، تخنش مجموع شعوب العالم الثالث وتعرج فيه، كما يشاء لها التخلف. وعلى عكس ذلك، أن عالم أثلاث الإنسانية الأخرى مصاب بالتبدير والتضخم، والقلق المر والعصاب المزمن. الإنسانية حاضرا، بمجموع أثلاثها مريضة مرهقة، مهددة بانهيار عام قد يقضي عليها كنوع وكأجناس.

ذلك وضع / أوضاع الإنسانية، حاضرا، وماتزال تنادي : «هل من مزيد» ؟

* * *

أما الطرف الثاني من العنوان «الإنسانية مستقبلا» فمن المحال الحديث عنه، لأن «ما مضى فات، والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها»

المستقبل غيب. ولا يعلم الغيب إلا الله، ويجهله حتى الراسخون في العلم، لأن الحتمية العلمية، هي أيضا، لم تعد صارمة ومقنعة إقناعا مطلقا. وكما جاء في القرءان : ﴿ وَلَوْ كنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ ﴾.

والماضي ألم ينته بخيراته وشروره ؟ فالتاريخ لا يعيد نفسه، وهو ما تلخصه قولة (هيراقليط) : إن الشخص «لا يستحم في نفس الماء، مرتين»، أو كما قال الأستاذ عبد الكريم غلاب «دفنا الماضي».

المقصود هنا هو ماضي وقائع وأحداث، لا الماضي كذاكرة جماعية هذه تبقى حية بمثابة وصلة توجه السلوك الفردي والجماعي وتمحو البنيات الشخصية.

أما الحاضر، فليس له حضور حق، إلا بالنسبة للدول المصنعة الكبرى التي احتكر التقنلوجيات والمعارف من أجل مصالحها، وهمش الثالثيين تهميشا حضاريا تاما، حتى باتوا في تاريخ يمارس عليهم دون أن يكون لهم فيه أي إسهام.

فليسمح سيادة الأستاذ أمين السر الدائم، وسيادة الأستاذ مدير الجلسات وحضرات الزملاء الخالدين والمستمعات والمستمعين.

فليسمحوا للعرض أن يقدم إلى تأملهم معطيات ليست غريبة عنهم، ولكنها في حاجة إلى أن تعرض لتناقش. فرغم كون المستقبل من قبل الغيب، لا يستحيل تخيل سيناريوهات ممكنة لما سيكون عليه الغد، قد يكون / من الممكن أن يكون.

* * *

تخطيط مسبق :

بالفعل، تأسس علم Futurisme (المستقبلية)، أي علم موضوعه دراسة الأسباب التقنية والعلمية والاقتصادية والمجتمعية التي تؤثر في تطور العالم المعاصر، وتعين على توقع الأوضاع الناتجة عن تفاعل تلك الأسباب وتأثير بعضها على بعض.

في الستينات، سَألْنا مؤسس هذا العلم، كيف يتصور مستقبل «المستقبلية» فأجاب : «لا أدري، ولكني أتمنى لها النجاح».

معنى هذا أن علما يقوم على التنبؤات يقر بعجزه عن أن يتعرف على مستقبله هو !

حقا، المستقبل غامض، لكن الاقتصاد العالمي المعاصر يدخل المستقبلية في منهجية التخطيط يضع تصميمات بمقتضاها يسيره بيد أن المسيرة قلما تمر دون تعثر، والتوقع لا يتعدى سنوات قليلة (إذ أعلى تصميم هو الخماسي) والنتائج تقريبية فحسب. ورغم ذلك، إن اعتماد المستقبلية ضرورة ملحة يقول عبد المالك الشرقاوي : «بدون إحصائيات ومعطيات، وبدون دراسات عميقة، على المستوى الوطني والإقليمي، يكون من الصعب الوصول إلى مستقبلية نَتَبَيَّنُ على ضوئها الأعمال المقبلة.

وإن أي تصميم للمستقبل لا يخطط إلا طبقا لما يتصوره المخططون من نماذج. فللنملة تحركات، وللطائرة أخرى، لكن المسيرتين تختلفان حسب سرعة الحركة وحسب الغاية منها، وتعني «غاية» هنا ما ينتج عن المسيرة بدافع لا قصدي يتحرك الحيوان غريزيا، بحثا عن مرعى أمين، أو طعام إنه يجهل التصميم الإرادي، والتوقع لنتائج مختارة مسبقا. أما الكائن البشري فإنه مقاصد، أي أنه يتحرك بعد أن يتصور

ما ترمي إليه حركاته يصمم لأفعاله، يخطط لها فتأتي أفعاله انعكاسات لمواقف ولقرارات قابلة للبرهنة. وإن وراء أي تخطيط نموذجا / نماذج يهندس الإنسان أفعاله قبل أن يحققها. والهندسة تقتضي أشكالا يقتدى بها، كما أن الحياة البشرية في عمومها، تسير وتتطور طبقا لنماذج مسبقة. فالنظرة المستقبلية طبيعية في الإنسان، لأن له دائما مشاريع ومقاصد، في حين أن الحيوان لا يستطيع تصورا أبعد من غايات حالة تأتي الغاية في نهاية الفعل وتسمى فائدة من حيث ترتبها عليه. فالغاية والفائدة مختلفان اعتبارا، وتختلف كلاهما مع مفهوم (قصد). فالقصدنية، أي تركيز الشعور وقد أخذ يتجه، إراديا، نحو تحقيق عملي لمشروع أو هدف لذلك يستلزم القصد وجود عزم وتقدير لقيمة الفعل، من حيث وسائله ونتائجه. فالأمم التي تستعير نماذج لحياتها، تسهم، موضوعيا، في استلاب شخصيتها، بل في ذوبانها. ذلك أن الذين ليست لهم نماذج أصيلة وصميمة يفتقدون، في الواقع، مقاصيد على مقاس حاجاتهم، وبالتالي، إن حياتهم مهزوزة من الداخل.

ـ إفلاس النماذج إفلاس للجميع :

من يستقرىء تاريخ المجتمعات البشرية، عند مدها وجزرها يتيقن **أن الأزمات المجتمعية أزمات نماذج، أساسا** ويلاحظ أن كل نموذج يقوم على معايير وقيم، تتركز أخلاقية الأجيال وتختمر ثقافة الأمة، فيها أيضا يولد النموذج، ومنها ينبعث، وإليها يعود : إنها محرض على الأفعال ونتيجة لتفاعلات الحياة الوجدانية مع الحياة المجتمعية، تقاربا وصراعا. لذلك، من الطبيعة أن تستعير الأمة كل ما تحتاجه، سوى النماذج، لأن كل نموذج يحمل معه تراثا كاملا، إنه لفيف من بنيات متأصلة في الوجدان الفردي وفي الذاكرة الجماعية. هكذا، إذا لم ينبع النموذج من صميم المجتمع لن يجد سبيلا إلى الأعماق، بل، كثيرا ما تكون مردوديته سلبية فتسطح الأصيل محدثة فراغا.

* * *

ـ تركيا أو سلبيات التغرب :

فلنتمعن أوضاع تركيا المعاصرة. لقد أراد لها أتتورك أن تتغرب، أي أن تغدو منتسبة إلى الغرب، ذهنيا وثقافيا وسلوكيا، ظنا منه أن الإرث العثماني ومجموع

التراث التركي أعباء مضنية تعرقل السير نحو التقدم والازدهار.

صفق الغرب لمصطفى كمال وشجعه على المضي في تمثيل مسرحية التغرب.

لكن لم يمر إلا زمن قصير حتى بدأت أنفاس الممثل تخفت، وعضلاته تتراخى، وصوته يتقطع، فانطلقت زوبعة النكسات. شعر الشعب التركي بأن التغرب اصطدم باغتراب وبغربة، وأن أتتورك لم يخط بأمته إلى الأمام (بغض النظر على النية الحسنة)، بل، على العكس، سلخها عن هويتها. فكانت خطوات، وكان اتجاه نحو الأمام، بيد أن القائد لم يتعرف على طبيعة الأرض قبل بداية السير. فبمجرد ما شرع التجربة، بدت الخطوات مدبدبة، فمنحذرة، ثم ملتوية، وبدت الأرض هشة تخترقها الأرجل وتتغرز فيها. اختلط الأمام بالخلف وتوقف السير إلى هنا وإلى هناك.

* * *

فما هو وضع تركيا ــ ما ــ بعد مصطفى كمال ؟

لقد أتت رياح عاصفة على الكمالية، وبقي الغرب ــ النموذج بعيدا. بعيدا، بعيدا، كما أصبح من المستحيل ترميم كلي وبالسرعة اللازمة، لما أعطته التجربة الخاسرة. وفعلا، عندما يدخل الانهيار أمة يصبح الترميم أصعب من البناء والتهديم أسهل منهما معا. إن التاريخ لا يرجع القهقرى لأن خطاطاته تتجدد بدون انقطاع. فالتطبع أقل قدرة على المقاومة من الطبيعة.

وما هو الربح العطي الذي جنته تركيا من التجربة الكمالية ؟ تصدعت هوية أمة بكاملها، دون مقابل. لم تنل من الغرب إلا أبجدية لاتينية هددت الجذور وأدت إلى انفصال عن إرث زاخر واكتفت بتقمص عوائد سطحية، مثل البذلة وربطة العنق، ومظاهر احتفالية.

وما أن ظنت الكمالية أنها انتصرت حتى بدت سوْآتُ القردية[1]، تدهور ثقافي، وضلالة معنوية، وانكسار سياسي وانحرافات في الأمن الداخلي، فذاقت تركيا مرارة اجترار تجربة التغرب. في 71/4/14، صرح (أتيلا كرأوسملغلو) نائب

(1) نسبة إلى القرد، إمام المقلدين.

رئيس الحكومة التركية خلال ندوة صحفية بأنقرة :

«لكي تلحق تركيا بدول السوق المشتركة، يجب أن تنتظر 2359 عاما» إلا أن 2359 سنة تستغرق مجموع التاريخ المسيحي وأكثر، تبدأ من القرن الرابع قبل الميلاد، أي من عصر أفلاطون وأرسطو. هذه المسافة الزمانية ليست وحدها المشكل. فدول السوق المشتركة لن تجمد تحركاتها لتنظر المتخلفين عنها، بل إن المسافة تنمو باطراد، وبسرعة فائقة. إذن من العبث أن تحقق الكمالية لمراميها.

عرفت تركيا ما بين 1964 و1970 معدلا للنمو المتوسط بقدر 6% سنويا وعلى العكس وصل النمو الاقتصادي عند دول السوق المشتركة معدل 30,70%.

بعد تقديم هذه المعطيات الإحصائية نستنتج استحالة تحقيق الحلم : لن تلتحق تركيا بالغرب، لن تتغرب ونضيف مفارقة أخرى : دول أوربا نفسها تلهث في الإسراع لتلحق الولايات المتحدة. فأمريكا الشمالية تتحدى السوق المشتركة وهذه تتحدى الغرب فأنى لتركيا أن تصل إلى مراد الكمالية ؟

* * *

والآن ها هي تركيا تستيقظ، بعد أن عانت مرارة مضاعفة من جراء التجربة النكسة بعد أن خسرت شرقيتها دون أن تتغرب، وعانت أزمات تراكمت ولم تبق لها إمكانات ذاتية لصنع نماذج تطابق حاجياتها الحياتية الخاصة، نماذج تناسق مع بنياتها الثقافية، فوقع لها ما تحكيه الخرافة عن الغرائب واليوم تتمخض بتركيا تيارات مكظومة كان أتتورك وأدها، دون مشروعية تاريخية أو منطقية، مما يظهر للعيان أن التغرب فاكهة شهية ومسمومة فتركيا تعرف اليوم طفرة معنوية برجوعها إلى الإسلام، بحثا عن اطمئنان النفس وعن جذور «انطلاقة جديدة». تفجرت تيارات معاكسة من أجل الإصلاح، يساندها التاريخ، وتساندها الطبيعة البشرية والجغرافية.

* * *

ـــ كل الدول الثالثية في التخلف سواء :

طالت الوقفة مع تركيا، لأن تجربتها ليست فريدة، بل تمثل نكسات كل دول العالم الثالث في التخلف سواء، وجميعها أخذ من الغرب ومايزال يتخبط في

التخلف، بل يسير في طريق نمو «و... التخلف».

والعبرة لا تحتاج إلى برهان... فكلنا نعلم أن العالم الثالث يئن أنين الاحتضار، لأن على ظهره ديونا جمة تجعله يتحمل فوق طاقته، ولا معين ولا رحيم(2). يكد الثالثيون طوال السنة ليؤدوا بعض الديون، بل إنهم يقترضون أموالا أخرى ليسددوا بها فوائد القروض السابقة، مما يضخم الديون ويرغمهم على أن يرهنوا ثرواتهم وأراضيهم، أكثر فأكثر، وعلى أن يستمروا في التبعية بالتنازلات لارادة ومصالح الدول المقرضة، السلاسل تزداد وزنا والزيار يشتد، في حين أن الأمية تضع أغشية سميكة على الوعي الجمعي وتعرقل تكوين رأي عام.

من الملاحظ، أيضا، أن معدل الاستهلاك، بالعالم الثالث، يفوق كثيرا معدل الانتاج، وأن قيمة الصادرات أقل بكثير من قيمة الواردات. فكيف ستكون غدا، الإنسانية الثالثية ؟ وكيف ستتطور علاقاتها بالدول الأخرى ؟

تلك بعض مظاهر مأساة الثالثين، حاضرا ومستقبلا المأساة لم تصل بعد فصلها الأخير. فمتى سيلعب هذا الفصل اليوم أم غدا ؟

* * *

مع أن الجواب صعب، لابد من تصور للغد، وإلا بقيت الإنسانية في دهليز لامنته ومظلم فمن الضروري التنبؤ بالغد، بغدٍ مّا، والتخطيط له. هنا يوضع سؤال شائك : طبقا لأي نموذج / نماذج يكون التصور والتخطيط ؟

فالذي يستطيع أن يرسم نماذج في الحياة هو وحده يمتلك القدرة على مواجهة المستقبل.

فمثل العالم الثالث كمثل بقية الأثلاث الأخرى، الجميع يعيش على نفس النماذج، نماذج مقتبسة من حضارة التصنيع بيد أن هذه دخلت في جدول أزمات مزمنة، ولا أحد يجد منها مخرجا.

---

(2) وَثَبَتْ مديونية العالم الثالث، في الفترة ما بين 1974 ــ 1982، من 180 إلى 625 مليار دولار كيف ستكون الوثبات المقبلة : وثبة الغد، ثم وثبة ما بعد الغد ؟ من المتوقع أنهما ستكونان إلى الهاوية.

والأزمة إذا أضحت مجتمعة، لا يمكن أن يتحدث عنها بالمفرد بل بصيغة الجمع. فهي، على وزن رزمة وتتشابه معها، إذاً تنضم فيها عناصر مختلفة وتتراكم، فتحصل عنها معطيات أحياناًمضطربة، وأحيانا متضاربة(3). الأزمات تخضع لجدل داخلي. مثلا : عن أزمة اقتصادية، تتوالد أزمات مختلفة مجتمعية (البطالة) وثقافية، وسياسية... كذلك، ان أزمة ثقافية تخصب أزمات أخرى...

* * *

تكاثرت الأزمات، شرقا وغربا، ووصلت حد المطلقية فانفلت زمامها من الأيدي، لأن الليبراليين والاشتراكيين فرطوا في الفلسفات والقيم والأخلاقيات التي كانت تساندهم، عند انطلاقاتهم الأولى.

لقد قامت الحضارة المعاصرة على مقاومة الاقطاع، لتحقيق الحريات والعدل، والمساواة كما تدل على ذلك وثيقة «حقوق الإنسان والمواطن»، وتمثال الحرية بـ «نيويورك» والتنظيرات الاشتراكية الخيالية والإصلاحية مع (برودون)، و(سان سيمون) و(فوريي)، وماركس.

وعندما استغنت البرجوازية، انحرفت وتجبرت، فتغلب عليها الشره والاحتكار، ودخلت في مزاحمات طاحنة قادتها إلى الاستعمار وتأسيس أمبراطوريات. فكان ما كَانَ من نزعات، وحروب. وإن المزاحمة منبع الحروب.

مفهوم «مزاحمة» لا يرادف مفهوم «منافسة» يكفي الرجوع إلى الجذرين اللغويين ليتبين الفرق الشاسع الذي بينهما(4).

ـ قيم البورسات :

بما أن الوقت لن يسمح لهذا العرض بتحليل النظريات القاعدية للاتجاهات

(3) لغة : أزم، أزما = تقبض وانضم.
تأزم القوم أطالوا الإقامة في ديارهم.
أزمة = الشدة والقحط. والأمر الزم المنكر.

(4) ازدحمت الأمواج = تلاطمت وتزاحم القوم = تضايقوا.
يوم الزحام = يوم القيامة «نفسي، نفسي اما جذر منافسة فعلى نقيض ذلك». نفست المرأة ولدت النفساء. نفس لشيء : رفع شأنه حتى أصبح مرغوب فيه. نفس عنه : فرّج عنه كربته. تنافسوا = تباروا، تسابقوا. استبقوا الخيرات.

المذهبية، سيكتفي بتلميحات عابرة تسلمنا إلى التأكد بأن الملاحظات على الليبرالية تعم، كذلك، التنظيمات الاشتراكية. لقد ساد المجتمعات المصنعة الخوف والشوفينية، والأنانية، والأنانة.

أما الفلسفات، السائدة فتحولت إلى فلسفات تبرير لا إلى فلسفات إنقاذ. من ذلك **النفعية** التي انتشرت في القرن الماضي حيث الامبراطورية البريطانية في أوجها، والانجليز ينعمون في النعيم على حساب بلدان ما وراء البحار. النفعية، فلسفة (بنتام) و(استوارمين). نؤكد أن سعادة الفرد في تحقيق المنفعة، ان المنفعة مبدأ جميع القيم، في ميادين المعرفة والعمل، والسياسة، والأخلاق. فالربح المادي غاية كل فعل، دون اعتبار المثل العليا. المنفعة علة اللذة، وتقاس معرفة اللذة كما يرى (بنتام). طبقا لسلم معايير تقديرية : الكثافة، والمدة، والقرب والامتداد، والخصب والسقاء، ..فكما كانت اللذة أكثر كثافة وأصفى وأخصب، ومدتها أطول والحصول عليها أسهل، لزم تفضيلها على غيرها.

ويلخص (ميل) الاتجاه النفعي بأن السعادة مجموع من اللذات، محدد كيفاً وكماً. فالسعي إلى المنفعة سعي إلى السعادة.

إذن لم يخطىء الصواب أولائك الذين نعتوا هذه الفلسفة البريطانية بأخلاقية أصحاب الأبناك. وفي أوائل هذا القرن، ساد بالولايات المتحدة مذهب الذرائعية مع (بيرس) و(جيمس) و(ديوي). تؤكد هذه الفلسفة أن الفكرة الصحيحة والفعل الصحيح هما الفكرة والفعل الناجحان. فالنجاعة هي عين الحقيقة، فلا يقاس صدق قضية إلا بنتائجها العملية. إن الحق والصدق نسبيان. فالمهم ليس أن يقود العقل إلى معرفة الأشياء أو صواب القضايا، وإنما المهم أن يقود إلى التأثير الناجع عمليا. يرى (جايمس) أن حقيقة قضية في كونها «نافعة» و«ناجحة»، ولكونها «ترضينا».

* * *

هكذا قضى التّعلق بالمنفعة، عند الانجليز، وقضت البرغماتية، عند الامريكانيين، على الإيثار والتعاطف، وتكلب تقديس المردودية والنجاعة، وانتشر جنون الانتاج والاستهلاك والتبدير على التعاون والرحمة على الأخوة الإنسانية.

* * *

أمام هذه الأوضاع لم يجد محاجر الحضارة الصناعية أي الثالثون، بدّاً من التقليد الكبشي للأوصياء على العالم، فاختاروا نماذج حياتية من المعسكرين، وفي هذا مصداق لنظرية ابن خلدون، من أن : «المغلوب مولع، أبدا بالاقتداء بالغالب، في شعاره، وزيه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده»[5].

* * *

— هل من منقذ ؟

لاحظ ابن خلدون أنه كلما إنحلت أخلاقيات العمران الحضاري، هاجمه عمران بدوي ليزجره على الاستقامة وعلى الرجوع إلى المبادىء[6].

أما اليوم، فلا عصبيات قائمة على القيم والتجند للدفاع عنها.

تحررت، سياسيا الشعوب المستعمرة دون أن يتحرر معها المستعمرين من ذهنيتهم القديمة ومن مركباتهم لم يخرج الثالثون من الاستعمار التقليدي حتى أغرقهم الاستعمار الجديد.

حقا، ترتفع في الغرب، صيحات مفكرين تتعانق منذرة ولكن صداها يرن في فراغ. إن حضارة التصنيع تبحث عن مخرج ولكن دون جدوى في حين أن الثالثون يقلدونه في أغلاطه وعبثه ولكل متاهاته والمسافات بين الشعوب تزداد.

* * *

أمام جدران العبث والحيرة، تصدعت جدران المبكى، لأن العين جفت، وغابت دموع التعاطف والرحمة. شرع الغرب يبحث عن مسليات، فارتأت الدول السكاندانفية أن الخلاص في تحرر متطرف إلى حد أن مفهوم حرية بات مرادفا لإباحية العلاقات الجنسية، وبات الحب، على اختلاف معانيه بعث على السأم والقرف.

وعندما تجمدت الآمال وانطفأ النور في العيون وانغلقت الضمائر أمام القيم،

---

(5) المقدمة : الفصل الثالث والعشرون.

(6) جاء في المقدمة : «فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر» فهم أكثر شجاعة في حين أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة لبأس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم.

وبين المقاطع في الحلقوم، وسكت القوم عن قول الحق والنهي عن المنكر تبعت الكلمات، دون نبرة، ودون كثافة، وأخيرا فقدت الحياة كل معنى.

ــ المردودية أم القيم ؟

يعتقد البعض أن البديل والحل في الاشتراكية. لكن اعتماداً على نفس التحليل النظري فإن الملاحظات على التنظيمات الليبرالية تعم كذلك التنظيمات الاشتراكية لأن عيوب العصر تسربت لكل المنظومات.

حقا، تختلف الماركسية مع الليبرالية، على مستوى التجريد، من حيث النظريات، لكن تتلاقى اهتماماتهما في ميادين التطبيق، فهما معا يجعلان من الاقتصاد «بنية تحتانية» وإن لم يسمهما الجميع، نفس الاسم. وكلاهما يعتبر التقدم المجتمعي فيما ترويه الاحصائيات عن النمو الصناعي وفي صحة ميزان التجارة الخارجية، والدخل،... يعتقد الشرق والغرب في التقنلوجيا يمكن الانقاذ، إنها المهدي المنتظر. مهما طال الانتظار. إلى هذا آلت الليبرالية كما آلت بعدها الاشتراكية.

تغيرت مبادىء الماركسية من أطروحات عقلانية، وفلسفية، ومن مبادىء نسبية أخلاقية كما كانت عند ماركس وانجلس والمنظرين الأوائل، إلى سياسة أحزاب حاكمة وإلى تبريرات فكرلوجية ضد خصوم سلطة الحزب المطلقة. وقع هذا التحول مع جوزيف ستالين. ثم بعد ذلك انقلبت الماركسية من أطروحات مذهبية إلى سلطة عسكرية، مثلا في بولونيا 1983.

من هنا، لا يمكن اعتبار الماركسية بديلا عن الليبرالية. فالاتجاهان ينطلقان اليوم من نقط أساسية مشتركة، وإن قدّمها، كل على حدة من منظاره الخاص : المردودية والمزاحمة والتطلع المتناهي. إن المتاجرة بصناعة الأسلحة على حساب اطمئنان الشعوب تهدد الحضارة الإنسانية وتجند كمية وافرة من الباحثين العلميين في الصناعة الحربية وتحتكر الاختراعات والاكتشافات العلمية والتقنية كأسرار استراتيجية.

وأين هذه الانحرافات المعادية للإنسانية وللحضارة من القيم التي قامت عليها البرجوازية ومن القيم التي انطلقت منها الاشتراكيات لمقاومة اعوجاج المجتمع الليبرالي ؟

كانت قاعدة القيم عند هؤلاء وعند أولائك، هي : إنقاذ الإنسان من الاستغلال والاستعباد، باسم حقوق الإنسان إلا أنه سرعان ما غدا لفظ إنسان عند الليبراليين مُجَرَّدَ حَدٍّ، أطلق، بالخصوص على الإنسان الغربي ذي الأصل الآري، وسخرت سعادته المادية، الشعوب اللا ـــ غربية.

أما البولشيفية، فلم تنتصر حتى أسست أمبراطورية من شعوب آسيا الوسطى، مما قضى على فكرة تساوي الشعوب وحقها في التصرف في أمورها (وما احتلال أفغانستان ببعيد...).

هكذا يتجاهل المعسكران، معا المعنى الحق لـ (مساواة) ولـ (عدل).

وبخصوص «حرية» إنه مفهوم لم يتحرر بعد من المغالطات والتأويل المصلحية الموجهة ومن الفكر الطبقيي، فهل يعرف الملونون معنى (حرية) ؟ بالولايات المتحدة ؟ وهل يتمتع بها حتى غير الملونين من الفقراء والمساكين، في الغرب أجمع ؟ وكيف يفسر موقف دول السوق المشتركة من المهاجرين الثالثيين ؟

هل تسمى حرية الإقامة الإجبارية بسبيريا التي حكم بها ستالين على الملايين ممن ظن أنهم يعارضون سلطويته ؟

* * *

ضاع محتوى القيم، شرقا وغربا، فضاع معه حق النمذجة الذي يدعي كل معسكر أحقيته.

لقد تفرعت الماركسية عن الليبرالية كرد فعل لتقاول اعوجاجها إلا أنها سقطت، بدورها، في عيوب تتعارض مع حقوق الإنسان وحقوق الشعوب :

فهل من حل ؟

* * *

ـــ التقنلوجيا أو المعجزة المغشوشة :

يقال ان التقنلوجيا كفيلة بالقضاء على مشاكل المجتمع الإنساني المعاصر لكن، أليس الإنسان واقع ومراميه أن تكون التقنلوجيا في خدمته **وهو يعمل بوعي وهو يحاور الطبيعة نظريا وتطبيقيا**. مع احترام القيم الشمولية.

فعلى المخططين أن يجددوا الإطار الإنساني، قبل أن يصمموا للتصنيع، وعليهم أن يبلوروا مفهوم (إنسان) إذ لا حضارة ولا سياسة مجتمعية حكيمة إذا تغافلت فلسفة التخطيط عن علاقات الإنسان بالتقنلوجيا، متناسية أن الإنسان غاية، وما التقنلوجيا إلا وسيلة لاسعاده بتحقيق رغباته. إن التقنلوجيا، في حد ذاتها محايدة (وإن واكبت خطابا موجها وفكرلوجيا قصدية).

* * *

ما هي إذن، الفلسفة التي ستربي من جديد الكائن البشري على وعي ذاته كشخص، وتمكنه من وسائل التأمل في إنسانيته وهو يتعامل مع عالم التقنيات والتصنيع بتعاون شامل ؟

إن أفعال الإنسان كلها موضوعات للتأمل الفلسفي، وكل فعل يطالب الفلسفة بأن تنير له الأهداف والطرق، وتبتعد به عن الفكر الأسطوري، مزيحة الحجب عن رؤية الواقع كما هو. فكثيرا ما تصاب القدرة على الانتباه بسِنة، ومن وظائف الفيلسوف والكاتب والمثقف أن يوفروا وسائل إثارة الانتباه والتمسك به. فليس دور النخبة هو الوصاية على الشعب، واعتباره قاصرا، بل توعيته مجتمعيا وسياسياً، **إذ السياسة هي التاريخ وهو يصنع حاليا في مجتمع.**

* * *

إن المجتمعات الثالثية في طريق التطور المضاد للصيرورة فلا هي حافظت على قيمتها ونماذجها الأصلية، ولا هي نجحت في تمثل ما حاولت اقتباسه من الغرب. وفي نفس الحين يكون مثقفوها، على قلتهم «طبقية» منعزلة، لها لغتها / لغتها الخاصة، واهتماماتها الخاصة، حتى انعزل مصيرهم عن مصير مختلف فئات المواطنين. انها مفارقة مجتمعية، حتى عند البعض ممن يدعون محاربة الطبقية. فقلة القليل هي التي قامت بنقد ذاتي صارم لتحرير الشعور التعس الغامض المكبوح. فبدون هذه البداية من طرف «النخبة»، لن يعي المجتمع الثالثي أوضاعه، ولن يستطيع تقويم إمكاناته القابلة للتجنيد والاستثمار في مصارعة المصير / المصائر المختلفة، وليس أمامنا نموذج إلا نموذج **مجتمع الاستهلاك الذي أغرق القوم في العنديات دون أن يضخم كينونتهم،** فبقي الوجود دون كثافة وغير قادر على أن يثري نظريتهم عن الحياة

والمصير. وبمعان جديدة، ففي عالم اليوم، تسيطر البرمجة على كل أوجه الحياة، ولم يبق سبيل للعفوية والمبادرات الشخصية. تشيأ المحيط فتشيأت معه الرغبات والميول والعواطف. وكلما انغلق أفق المستقبل تقلص منظار الرؤية الداخلية والخارجية.

يبحث الشباب الغربي بلا جدوى، عن رسالة ليعطي للوجود معنى، بيد أن أوضاع مجتمعه الحالي لا تمكنه سوى من تعويض عالم المثل والمبادرات بعالم الجنس، إذ بات الشعور هو : «بالجنس يتحرر الفرد وتتحرر الجماعات» فالجنس هو الاهتمام الأول لدى بناة المستقبل. تتحرر المرأة كلما تحررت جنسيا وإن مقاومة الاستلاب هو إشباع رغبات الغرائز والعنف هو أيضا ممارسة للحرية.

* * *

ـ الحجج :

كثيرة جدا، سنشير إلى بعضها.

منذ نهاية الحرب العالمية الأخيرة والغرب يتعرى في آدابه وفي البرامج المتلفزة، والمسرح، والفيلم السينمائي... حقا تتوالى صيحات كثيرة من المفكرين، منذرة مفجعة... إلا أن صداها خافت لأوضاعٍ لا تبعث على التفاؤل بالغد. وتعوق الغرب عن خلق وسائل لبناء مستقبل إنساني متجدد.

* * *

الغرب الحالي حائر، ولا أمل أو مدد في الأفق فالماركسية انقسمت مللا ونحلا ذهبت بمصداقيتها، ولا شيء يبشر بالغد، ومع بداهة هذه الأوضاع التي فقدت الأسرار والملاحة، مازال فكرلوجيون ثالثيون يستوحون من الغرب والشرق نماذج، ويدعون أنه لا مفر من الاقتداء بها، والتجند الكلي لتحقيقها الكلي، على حساب كل ما عداها. إنه وضع شائك وخطير.

(يصرح مؤرخ مغربي بأن المشكل الأساسي الذي يحوم حوله منذ سنين هو الآتي) : «كيف يمكن للفكر العربي أن يستوعب مكتسبات الليبرالية قبل (وبدون) أن يعيش مرحلة ليبرالية».

إنه تساؤل يدل على اختيار مسبق. اضطر المثقفون العرب إلى أن يعيشوا مرحلة

الليبرالية، قبل أن يستوعبوا مكتسباتها، فمن الضروري أن يعيشوا مرحلة الليبرالية، قبل أن يستوعبوا مكتسباتها، فمن الضروري أن يعيشوا تاريخ اليابان في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين قبل أن يستفيدوا من التجربة اليابانية ومن مكتسباتها... وكذلك بالنسبة للتجربة الذرائعية بأمريكا، والماركسية السوفياتية بروسيا... معنى ذلك، أن على العرب، والثالثيين على العموم، أن يعيشوا ماضي أغلبية الدول المتقدمة صناعيا وأن يستنسخوا تجاربها جميعا، إن كانوا يطمحون إلى استيعاب مكتسبات القرن العشرين !...

فهل يسمح الزمان بمثل تلك الإعادة ؟

ان نبدأ بتهييء دولة (على شكل الدولة في الغرب، طبق الأصل) ونبدأ التاريخ من حيث انتهى الغرب، منذ أزمان. فلنفرض، جدلا، أن الثالثيين سيصلون إلى مرحلة البرجوازية. فعند الوصول، سيكون الغربيون قد طووا عصورا أخرى، واتسعت الرقعة، وتضاعفت المسافة التي تفصلنا عنهم.

فماذا يمكننا فعله إذاك لمواجهة الأوضاع الجديدة ؟

على أن تلك الأوضاع تخيف كثيرا من المثقفين الغربيين فيتشاءمون، هم أنفسهم من نماذجهم ومن غدهم. يصرح زميلنا (موريس دريون) :

«إن حضارتنا البرومشية، قد دخلت زمان العقاب».

يقوم تساؤل المؤرخ العربي السابق الذكر على **مصادرتين ضمنيتين** :

ـ ينبغي للفكر العربي أن يستوعب مكتسبات الليبرالية والذرائعية والماركسية، والماوية والتيتية، والبنيوية عساه يلتحق بركب حضارة التصنيع، يفرض ذلك الاستيعاب أن يعيش الفكر العربي مراحل تاريخية متناقضة وأن تتواجد لديه ذهنيات مختلفة.

إن هذا لهو المحال المبين !

التراث الليبرالي كالتراث الاشتراكي لم يعد شموليا ومكتملا لإنسانية. لقد أظهر الواقع صحة ذلك باعتراف الليبراليين أنفسهم. يصرح (فوركاد) الوزير الفرنسي السابق أن الغرب : «على وعي بالخطر المعنوي الذي يهدده».

ثم يضيف :

«إن تقدم المعارف العلمية وازدهار التقنلوجيا قد صاحبهما تضعضع وتفاهة القيم الأخلاقية».

إذن علينا أن نتصور التراث الليبرالي تصورا واقعيا، كما هو بأخطاره ومساوئه، لا بمزاياه فحسب.

* * *

كثير من الغربيين يعون تلك الأخطار وتلك المساوىء، ويبحثون عن بديل، أما نحن فنتبنى أحد النسقين، الليبرالي والماركسي، دون نقد ودون تكييف خصوصا بعد أن دخلت المنظومات الكبرى الدائرة المسدودة وانمحى أفق الأمل. لقد حققت ما كان ممكنا أن تحققه، فأعطت للإنسانية حضارة بكاملها، حضارة التصنيع، وأبدعت فنونا وعلوما وفلسفات، وها هي اليوم أمام الباب الموصد : التضخم، المالي، البطالة، التشرد، الشباب الجائع، السجون المليئة، الحروب على اختلاف أصنافها وحروب العصابات. تفكك عرى الأسرة، وتمردت أجيال على أجيال. إفلاس اقتصادي وأخلاقي ! الغرب والشرق يئنان من تناقضات لا تزيدها الأيام إلا بروزا، لأن الجميع وصل سن اليأس، ولم يعد يومن بالتقدم العام. تأكيداً لذلك نحيل على كتاب لـ (ج. تيبو) «فرنسا المستعمرة» (بفتح الميم). يتحدث المؤلف عن فرنسا التي أصبحت بلا شخصية أو بشخصية أفرغت من هويتها بعد أن «تأمركت» ثقافيا وأصبحت مستعمرة خاصعة خاضعة. فمخيلة الفرنسيين تخضع لتأثيرات هوليوود ولذهنية «مفاتيح المستقبل» أي للحاسب الإلكتروني أما الأبحاث العلمية الفرنسية فيقتنيها الدولار الذي سيطر أيضا على ثروات فرنسا، عن طريق الشركات المتعددة الجنسية وفي الخاتمة، يوجه المؤلف نداء لدول أوربا يحضها على مقاومة خيوط العنكبوت التي تحيطها بهم الولايات المتحدة، أكثر فأكثر. إنها دعوة إلى الأصالة ضد الضياع في التأمرك وكيف يكون نداء المثقفين الثالثين لشعوبهم ؟

* * *

من المنظار الإنساني، يتأكد أن العالم يسير في تيه، والأنظمة الحالية كلها تنذر

بالدمار، وقليل هم الذين ينظرون بجدية إلى مأساة اليوم، في شمولها وعمقها. بدأ السير بلا أضواء، منذ 1914، وتكثفت الظلمة في حرب 1939. ومنذ ذاك الإبان، والناس يحيون فراراً من «هيروشيمات» أخرى متوقعة. فلا الليبيرالية، ولا الماركسية، ولا أية منظمة وجدت، حتى الآن، طرقا للنجاة. لقد فرقعت الصناعة الثقيلة بنيات المجتمعات القديمة، ولم تمكن الإنسانية من معطيات لقيام بنيات أفضل. أضاع الغرب، كما أضاع الشرق، ما كان يؤسس الانسجام المجتمعي (الأسرة والتعاونيات الحرفية...) ففقدا معه التفتح الشخصي والجماعي، وباتت أنماط الحياة تسير على إيقاع التقنيات والتصنيع المتنامي. طغت الفردية والفردانية بين الأفراد وبين الشعوب[7]، كما طغى عدم التفاهم بين الجميع. لم يعد الفرد قادرا على التكيف مع الزمان والمكان، لأن الزمان والمكان يفران من قبضته فيشعر، أكثر فأكثر، أن أبعاده التأطيرية الطبيعية تكسرت. فلا زمان للحياة كما يودها ولا فضاء حيويا كافيا أما الحاجات فتنمو، بلا حدود.

من طبيعة الرأسمالية أنها لا تعيش ولا تنتعش إلا بالنمو، نمو التكديس والتراكم، معياره : المردودية. فالثالثيون في حسبان الغرب، لا يلفتون الاهتمام إلا من منظار المردودية : كميات المواد الخام في بلدانهم، واليد العاطلة الرخيصة التي يسخرها الاقتصاد الغربي. بيد أن النمو الطبيعي والضروري لحياة الرأسمالية لا يمكنه أن يتعدى عتبة ما، والا اصطدم. وأن الصدمة العنيفة لا مرد لها، والعتبة صامدة فلا مخرج للرأسمالية إلا أن تعيد النظر في كيانها ومراميها وتبحث عن بنيات وقيم جديدة. إن التغير الاقتصادي لا يوازي الصيرورة التاريخية لأنه محدود النفس في حين أن الصيرورة سير بلا توقف. أما الماركسية أو الاشتراكيات بصفة عامة، فهي أيضا تعيش نفس الاحروجة وبالطبع تجابهها نفس المعضلات وتنطح نفس الجدرات العبثية.

* * *

على رأس الغلطات النظرية التي ارتكبتها الليبرالية، أنها افترضت توازيا بين نمو

(7) فردانية = اتجاه يجعل من الفرد أساس الواقع والقيم وبانتشاره تتقوى الأنانية لدى الفرد والشوفينية عند الشعوب.

الرأسمالية وبين صيرورة التاريخ العام.

أما الغلطة الثانية فسيكلوجية وتاريخية : آمن الليبراليون بأن الامبراطوريات خالدة، ولن تعوزها الطاقة والمواد الخام. فلما فوجئوا بالمصير الجديد مصير عصر ما بعد الاستعمار، وتكونت كتل تساري في سيطرتهم على الشعوب الضعيفة واستغلالهم لها، لم يجدوا حلا لأزمات الطاقة والبطالة، إذاك اعترتهم فاجعة، وتضعضعت الموازين التجارية، وعمت صراعات مجتمعية متماوجة بعنف وتمرد، فأصاب الغربيين مصاب جماعي.

ومن جهة أخرى، قد يؤخذ على الدول الكبرى من وجهة نظر أخلاقية خطيئة لا تغتفر. لقد احتكرت العلم والاعلام والتقنلوجيا أي أنها هيمنت على انتاجات الفكر الإنساني، وأعدمت شموليته، كما هيمنت على خيرات الأرض في 90% الأطر العليا علماء وتقنيين، يشتغلون في تلك الدول التي تحتكر خيراتهم ولا تتورع عن إغراء الأطر الثالثية (هجرة الأدمغة).

تلك سلسلة أخطاء تراكمت بحكم عمى عصابي بحيث إذا حكمنا وجهة النظر الأخلاقية، لاحظنا الحيف المداهن المتمثل في ما نبغي أن يتسم به الفكر الإنساني من شموليته لقد أخضع الفكر إلى ضغوط وصدمات بلا حد.

* * *

فما هو الحل ؟

حلول لما يجري حاضرا، وحلول للغد ؟

قد نجد أجوبة، مثل ما عند رجاء غرودي، في كتابيه «بشائر الإسلام» و«الإسلام يسكن مستقبلنا». أما بالنسبة لنا فقد سكتت شهرزاد عن الكلام المباح، في انتظار الصباح.